مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد 15 (العدد 4) 1414 هـ - 1994م.

صدى العوامل الفكرية والاجتماعية في الشعر العباسي

د. عبد الفتاح نافع*

□ ملخص □

يتناول هذا البحث قدرة الشاعر الساخر في العصر العباسي على التفاعل مع العوامل المختلفة التي كانت تؤثر في مجريات الحياة، وتصوير الأوضاع المختلفة الناجمة عن الفكر والاجتماع والسياسة والاقتصاد تصويراً حياً، فيه من التلميح والتعريض والإشارة والتلويح ما يجعله أكثر ألوان الشعر العربي تأثيراً في النفوس وقدرة على التقويم والاصلاح.

ويقوم البحث على محورين أساسين متداخلين:

الأول تناولنا فيه بإيجاز الحركات العقلية التي انتشرت في العصر العباسي وموقف شعراء السخرية من قضية القديم والجديد، وما لقوه من عنت ومشقة وهم يصورون التناقض الرهيب في شتى مناحي الحياة، ومحاولاتهم الجادة لاستبدال أنماط وصور الحياة الحضرية بمفاهيمها الجديدة بعادات ومثل وأدب الحياة العربية القديمة.

أما المحور الثاني، فقد عرضنا فيه لنمط الحياة الاجتماعية آنذاك وما فيها من فوارق رهيبة بين الطبقة الحاكمة المتنفذة والطبقات الأخرى من عامة الشعب، وكان لابد أن نتعرض -ونحن نتناول الحياة الاجتماعية- للوضع الاقتصادي والسياسي باعتبارهما نتاجاً للوضع الاجتماعي، وعرضنا ألواناً من الشعر الساخر الذي يصور انعكاس هذه الأوضاع جميعاً على الشعراء الساخرين وقدرتهم على نقل آلام الأمة وآمالها وتصوير ما وصلت إليه من وبال وانحطاط ويأس مترسب وحيرة، ومحاولتهم اليائسة في بث أشجانهم على أمل التقويم والتغيير والإصلاح.

* أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة اليرموك - إربد - الأردن.

(1)

أحدث انتقال الحكم من الأمويين الى العباسيين ثورة في كل شيء فقد تحول العصر من النقاء العربي في العنصر والثقافة، الى عصر أممي لكل جنس عاداته وتقاليده وثقافته. فشهد العصر حركة ازدهار عقلية كبرى تمثلت في الفلسفة والأدب والعلوم الدينية واللغوية وغيرها. وساهمت حرية الفكر وكثرة الأموال واغداق العطايا على العلماء والشعراء والأطباء والمغنين[1] في دفع عجلة الحضارة باطراد.

ولم يكن يسمح لحرية الفكر أن تتجاوز حدودها فتتناول السلطة أو الدين بسوء أو مذمة. ومن ثم لقي الذين تجرؤا على الخروج عن الحدود المرسومة كثيرا من العنت والمشقة. فشهد العصر مآسي كثيرة، كان ضحاياها كثير من العلماء والأدباء والأئمة، الذين عذبوا أو لقوا مصرعهم لاتهامهم بالزندقة أو لتجرؤهم على السلطة، أو لأن أشعارهم توحي بالشك. فقتل بشار بسبب أبيات قالها ساخرا من الخليفة[2] وسجن أبو نواس وقهر مرارا لجرأته في شعر الخمرة[3]. وقتل ابن السكيت بطريقة بشعة لموقفه في الدفاع عن مذهبه. وجلد أحمد بن حنبل لثباته على رأيه. وصلب صالح بن عبد القدوس وعبد الكريم ابن أبي العوجاء لاتهامهما بالزندقة. ولقي ابن المقفع المصير نفسه. ونكل بالمعتزلة مرارا بسبب موقفهم الفكري من قضية خلق القرآن. ولئن أفادت حرية الدين والفكر من ناحية، فقد كانت لها عواقبها من ناحية أخرى. ذلك أنها ساهمت في نشر الخلاعة والسكر والمجون وولدت البدع في الاسلام وأورثت الهزء بالأديان[4]. فالانتقال من البداوة الى الحضارة، ومن الفطرة الخالصة الى العلم والفلسفة، وتشعب الاختلاط وتنوعه، أحدث اضطرابا في الأخلاق والعادات والنظم[5]. وأطلق العصر للعواطف والأهواء حريتها فنشأ تنافس في اللذة واستباق اليها والى وصفها، وضعف رقيب الدين والأخلاق على الحياة، وتغيرت ألفاظ الشعر لتتناسب مع وصف العواطف، فوصف الشعراء عواطفهم من غير تكلف ولا تقيد بالقديم ودون خشية من سطوة الأصمعي أو أبي عبيدة[6]. ومع هذه الحرية الفكرية وبسبب من الحركات العقلية المختلفة التي انتشرت في هذا العصر بدا التناقض جليا في شعر الشعراء وأدب الأدباء، فقد التقى العلم بالفلسفة، والتحلل الخلقي بالتصوف، والأدب واللغة والفقه بمفهوماتها القديمة مع الهندسة والتنجيم والكيمياء والرياضة بمفهوماتها الحديثة، والتقت المذاهب الكلامية التقاء عنيفا[7]. وكان هذا التناقض في دوائر المعرفة صورة أخرى للتناقض في الحياة، فقد اجتمعت في بغداد شتى المتناقضات، ففيها الأحياء العامرة بالقصور والدور والمتاجر، وفيها

المساجد حيث تنعقد مجالس اللهو والغناء والشرب وترقص الجواري وتغني القيان، وفيها أحياء خلفية للعامة يعشش فيها الفقر وتفرخ الجريمة، ويعمرها الكادحون والعيارون واللصوص والخانقون والمكدون وعامةالناس(8). فهي جنة الموسر وعذاب المعسر(9).

كان المجتمع العباسي مشدودا الى الخلف بقوة الدين والتقاليد والعادات وهو الآن يتعرض لزلزال عظيم يدفعه دفعا الى حضارة عظيمة ترافقها طفرة مادية لم يتعودها العرب من قبل. الى جانب ما يرافق الحضارة من مجون وعبث ورياء ونفاق. ومن ثم فنحن لا نستغرب أن يكون لكثير من الناس وجهان، أحدهما جاد يظهرون فيه للعامة وآخر يخلعون فيه العذار تاركين لشهواتهم حريتها المطلقة. واذا صح هذا الافتراض فقد يكون الشعراء الساخرون الذين يجهرون بما في نفوسهم أكثر صدقا من غيرهم في تمثيل عصرهم تمثيلا صادقا، ذلك لأنهم يظهرون على وجه واحد في حين كان الفقهاء والمتكلمون ورواة الحديث والأخبار لا ينطقون بلسان أحد، ولا يعبرون عن رأي أحد ، ولا يمثلون الا العلم الذي يعنون به ويعكفون عليه(10) بل ان بعض القضاة كان يطعن في أخلاقياتهم وشذوذهم(11). وقد يؤيد وجهة النظر هذه ما نراه من مدح واطراء لشعراء السخرية من علماء معروفيين بتزمتهم والتزامهم بالأعراف والتقاليد وفرضيات التراث والقوانين الصارمة للغة. فقد فضلوا أشعارهم على أشعار القدماء(12) ورأوا في بشار أفقه الناس وأعلمهم بكتاب الله، وأحسن الناس حديثا وأظرفهم مجلسا وأكثرهم ملحا، وانه استاذ أهل عصره من الشعراء يجتمعون اليه وينشدونه ويرضون بحكمه(13) والجاحظ لا يعرف بعد بشار مولدا أشعر من أبي نواس. والأصمعي لا يروي لأحد من أهل الزمان ما يرويه لأبي نواس "ولولا قالة الناس فيه ما فارقني"(14). وأبو عبيدة يعتبره في منزلة امرىء القيس وابن الاعرابي يختم بشعره . وأبو عمرو الشيباني يحتج بشعره(15) وابن المعتز يرى فيه عالما بالأحكام والفتيا وصاحب نظر ومعرفة بطرق الحديث(16). وابن سكرة الهاشمي وابن الحجاج ـ وهما من أكثر الشعراء خوضا في المجون والسخف ـ وضعا في مرتبة جرير والفرزدق(17). والحسين بن الضحاك جيد المدح والغزل والهجو وهو في بحار أبي نواس(18) ومطيع بن اياس له شعر كثير في جميع الفنون(19) وسلم الخاسر كثير البدائع والروائع في شعره(20). وابن الرومي كان أدبه أكثر من عقله وكان يتعاطى علم الفلسفة(21).

كان أمثال هؤلاء الشعراء خير من يمثلون أنفسهم وعصرهم ، فقد فروا من الطقوس الرسمية وصعب عليهم الاختلاط بالوزراء والأشراف ومعاشريهم فأبو نواس يقول:

"انما يصبر على مجالسة هؤلاء الفحول المنقطعون، الذين لا ينبعثون ولا ينطقون الا بأمرهم، والله لكأني على النار اذا دخلت عليهم حتى أنصرف الى اخواني ممن أشاربه، لأني اذا كنت عندهم لا أملك من أمري شيئا"[22]. وعندما يسجنه الخليفة ويأخذ عليه أن يذكر الأطلال في شعره يقول في سخرية عجيبة:

أعر شعرك الأطلال والمنزل القفرا
فقد طالما أزرى به نعتك الخمرا
دعاني الى نعت الطلول مسلّط
تضيق ذراعي أن أرد له أمرا
فسمعا أمير المؤمنين وطاعة
وان كنت قد جشمتني مركبا وعرا[23]

فيجاهر بأن وصفه الأطلال والقفر انما هو من خشية الامام، والا فهو عنده خداع وجهل[24] ويعلن في أكثر من مكان في ديوانه ثورته على الكليشهات القديمة التي كانت تؤطر القصيدة القديمة[25].

وكان لا بد أن يتعرض الشعراء الذين تنكروا للمحافظة لسخط الأمة من رجال العلم والدين. فالأمة العربية حريصة بفطرتها على سنتها القديمة، فكأن شأن الشعراء المجددين شأن الفلاسفة المجددين فتعرضوا للحبس والضرب والنفي وغير ذلك من ضروب الاضطهاد باختلاف الخلفاء والوزراء[26]. ونهض أنصار القديم ـ خلقا كان أم سياسة أم أدبا أم دينا ـ للوقوف في وجه أنصار الحضارة الجديدة وما تحمله من معان واتجاهات تتناقض مع الفطرة العربية وتقاليد الأصالة الثابتة.

وكان لشعراء السخرية دور بارز في نصرة الجديد والدعوة اليه بجرأة وصراحة، فأمسكوا بمعاول الهدم، يهدمون القديم لا من أجل الهدم فحسب بل من أجل أن يرسوا دعائم جديدة لمجتمع جديد. وقد بدأت الثورة في بداية الأمر في وجه اللغة وقوالبها الجامدة، وتزعم هذه الثورة بشار، ولعل بيتيه الطريفين: -

ربابة ربة البيت
تصب الخل بالزيت
لها عشر دجاجات
وديك حسن الصوت

واللذين اعتبرهما أحسن من قول امرىء القيس "قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل" لتمشيهما مع لغة العصر دليل على ذلك مهما كانت ملابسات الرواية التي وردت في الأغاني[27].

كما أن بشار شن حملة شعواء على الأخفش وسيبويه لأنهما كانا يطعنان عليه استخدامه كلمات لم يستخدمها العرب من مثل كلمة نون ونينان، والوجلى والغزلى، فتوقياه واحتجا بشعره استكفافا لشره[28]. كما أن في مقطوعة بشار الطريفة الساخرة:

سيدي خذ بي أتاتا
عند باب الأصبهاني

والتي يصف فيها خد الأتان:

ولها خدّ أسيل مثل خد الشيفراني

نجد ردا ساخرا جدا على اللغويين الذين اعترضوا على كلمة "الشيفراني" بقوله "هذا من غريب الحمار فاذا لقيته فاسأله عنه"[29]. هذا إلى جانب أن المقطوعة في حد ذاتها لوحة ساخرة لأدب جديد في غزل الحيوان.

وكان أبو نواس يعبث باللغة نكاية بالعلماء المتشددين فيشذ عن القواعد اللغوية غير مبال، وربما يخرج عن بحور الشعر المعروفة[30] وكان اسحق الموصلي يأخذ عن الأصمعي ويكثر الرواية عنه، وعندما وجد أن الأصمعي مغرم بالشعر القديم ويرفض له أن ينشد أبياتا حديثة فسد ما بينهما وهجاه[31].

ونجد هذه السخرية من القديم في سخرية ابن الرومي من محمد بن المفضل بن سلمة ـ وكان فقيها شافعيا من كبار الفقهاء ومتقدميهم ـ وكان يعتز بالقديم ويجله:

لو تلفقت في كساء الكساتي
وتلبست فروة الفـــــراء
وتخللت بالخليل وأضحى
سيبويه لديك رهن سبـــاء
وتكونت من سواد أبي الأسود شخصا يكنى أبا السوداء
لأبى الله أن يحك أهل العلم الا من جملة الأغبياء[32]

وامتدت السخرية لتعبر عن الصراع المرير بين العرب والموالي، ولتشمل جانبا هاما أساسيا يقيم عليه العرب بنيان فخرهم في الشعر وهو عامل النسب، فانقض شعراء السخرية على هذا العامل يوسعونه تهكما. فدعبل الخزاعي يسخر من مالك بن طوق الذي ترك السعي والعمل وشغل بنسبه:

الناس كلهم يسعى لحاجتـــــــه
ما بين ذي فرح منهم ومهمـــوم
ومالك ظل مشغولا بنسبتـــــه
يرمُ منها خرابا غير مرمـــــوم
يبني بيوتا خرابا لا أنيس بهـــا
ما بين طوق الى عمرو بن كلثوم[33]

وابن الرومي يطمس النسب ويمسخه في سخرية عجيبة في قوله في اسماعيل بن بلبل الذي ينتمي الى غير أصله:

عجبت من معشر بعقوبتنـــا
باتوا نبيطا وأصبحوا عربـا
مثل أبي صقر،ان فيه وفي
دعواه شيطان آية عجبـــا
بيناه علجا على جبلتـــــه
اذ مسه الكيمياء فانقلبـــا
عرَّبه جده السعيد كمـــا
حول زرنيخ جده ذهبـــا
وهكذا هذه الجدود لهـــا
اكسير صدق يعرب النسبا[34]

ونجد مثل هذا في سخرية دعبل ممن انتسب الى غير أبيه:

سألته من أبـــوه
فقال: دينار خالـــي
فقلت: دينار من هو
فقال: والي الجبال[35]

ويبدو أن هذا الانتماء الكاذب كان يمكن بعضهم أن يصل الى تنفيذ مآربه التي لا يستطيع أن يحققها لو انتمى الى نسبه

الحقيقي، يقول ابن سكرة:

جنى نسبي علي وصد رزقي

وأنكلني من الدنيا نصيبي[36]

ونلحظ هذا الاتجاه عند بشار، وان كان يبدو متذبذبا، فهو يفخر حينا بانتمائه الى بني عقيل[37] وحينا بانتمائه الى خراسان[38] ويخلط فينتمي الى بني عامر والى قريش العجم[39]. ويقيم موازنة ساخرة بين الحضارة الفارسية ومعيشة العرب الضنكة في أكثر من قصيدة ، ولا يترك زاوية في الحياة العربية القديمة الا ويذمها ويقارن بينها وبين حياة الفرس في عهد الأكاسرة[40] فاتحا الطريق لأبي نواس ليؤسس بنيانا شامخا من السخرية اللاذعة من الحياة العربية القديمة في عاداتها ومثلها وأدبها وليحاول جاهدا أن يستبدل هذا جميعا بصور وأنماط من الحياة الحضرية الجديدة[41].

ونرى لابن الرومي لمحات في ديوانه وان لم يتخذ من ذلك موقفا أو منهجا محددا[42].

ويمتد الشعر الساخر ليطعن في الأخلاقيات بطريقة حادة نجدها في أرجوزة الرقاشي المشهورة:

أوصى الرقاشي الى خلانه

وصية المحمود في اخوانه[43]

كما نجد هذه السخرية تستبدل عنصر الفخر العربي القائم على التغني بالحرب والقتال لتتحدث بدلا منه عن مجلس الأنس ولتصوره بالمعركة:

ومجلسنا حومة أرهجت

لزحف الندامى اليها بدار

كأن فكاهاتهم اذ علت

غماغم للحرب فيها شعار

كأن الكؤوس بأيدي السقاة

سيوف لها بالدماء احمرار[44]

وتتناول السخرية أدوات الحرب والقتال — والتي هي عناصر أساسية في القصيدة القديمة ـ لتحطمها وتستبدل بها المتعة. فعندما يقول أبو دلف قصيدته:

ناولنيي الدرع قد طا

ل عن القصف جمامي

يجيبه الرقاشي ساخرا:

جنبني الدرع قد طا

ل عن القصف جمامي

واكسري البيضة والمط

رد وابدى بالحسام

واقذفي في لجة البحـ

ـر بقوسي وسهامي

وبترسي وبرمحي

وبسرجي ولجامي

واعقري مهري أصاب الله مهري بالصدام

أنا لا أطلب ان يعرف في الحرب مقامي

وبحسبي ان تراني

بين فتيان كرام

نهزم الراح اذا ما

همّ قوم بانهزام

ونخلي الضرب والطعن لأجسام وهام[45]

لشتي قال قد طـــــا

ل عن الحرب جماي

ونحن نجد مثل هذا الاتجاه عند أبي نواس حيث يستبدل اللهو والطرب والنساء بالسيف والحرب[46].

ويتطاول شعراء السخرية الى رجال العلم والدين والى الفقهاء والقضاة، فيسخرون منهم لاعتبارات كثيرة منها أنهم يعطلون ركب الحياة بجمود فكرهم وعدم تقبلهم الجديد ومنها أنهم يأخذون بالقشور دون الجوهر. ونجد مثل هذه السخرية والعبث في هجاء بشار لواصل بن عطاء، وموقف العلماء عمرو بن عبيد والحسن البصري ومالك بن دينار من بشار والذي أدى الى نفيه من البصرة[47]. كما نجد هذه السخرية في عبث أبي نواس بالقضاة والفقهاء[48] وفي حديث ابن الرومي المتأصل وسخريته المريرة من أصحاب اللحى[49] والتي نعتقد أنها تفسر حقيقة الناس المتوارين خلف ستار الدين[50]. ونجدها عند السري الرفاء الذي نقل الينا صورة ساخرة للقاضي التنوخي وابن معروف والايذجي وغيرهم وهم يمارسون القصف والخلاعة في مجلس الوزير المهلبي[51] ونجدها في سخرية ابن مناذر من قاضي البصرة وكان كثير الخطأ قلما يصيب[52]. وكأن شعراء السخرية بهذا انما يريدون أن يلفتوا النظر الى هذه الفئة من الناس التي تظهر للجمهور على أنها جادة وقورة متمسكة بأهداب الدين تعاقب الخارجين عليه وعلى القانون في حين تغرق هي الى آذانها في الرذيلة.

وقد امتدت هذه السخرية لتطعن في الدين نفسه، فتناولت الفرائض وسخرت منها[53]. وتعرضت للأنبياء[54]، ثم تحولت هذه السخرية وهذا العبث الى سخرية مبنية على الفلسفة والمنطق والحجج عند أبي العلاء المعري يقول:

تناقض ما لنا الا السكوت لـــه

وأن نعوذ بمولانا من النـــار[55]

يد بخمس مئين عسجد فديت

ما بالها قطعت في ربع دينار

ويقول:

ان العراق وان الشام مذ زمـــــن

صفران ما بهما للملك ساطـــــان

ساس الأنام سياطين مسلطـــــة

في كل مصر من الوالين شيطـــان

من ليس يحفل خمص الناس كلهم

ان بات يشرب خمرا وهو مبطـان

تشابه النجر فالرومي منطقـــه

كمنطق العرب والطائي مرطـــان

أما كلاب فأغنى من ثعالبهـــم

كأن أرماحهم في الحرب أشطان

متى يقوم امام يستفيد لنـــا

فتعرف العدل أجيال وغيطـــان

صلوا بحيث أردتم فالبلاد أذى

كأنما كلها للاثل أعطـــــان[56]

ثم تتحول السخرية لديه الى سخرية مطلقة

ترفض الأديان جميعا :

دين وكفر وانباء تقص وقـر

قان بنص وتوراة وانجيـــل

في كل جيل أباطيل يدان بها

فهل تفرد يوما بالهدى جيل[57]

(2)

رأى الخلفاء العباسيون فـي أنفسهم أنهم أحق النـاس بـارث الرسـول، وأنهـم أفضل من الرعية، وعامة الحكام أفضل من المحكوم عليهم ولهم، لأنهم أفقه في الدين وأقـوم بـالحقوق، وأرد علـى المسـلمين، وعلمهم بهذا أفضل من عبادة العباد لأن نفع ذلك لا يعدو قمم رؤوسهم ونفع هؤلاء يخص ويعم[58] وأحـاطوا أنفسـهم بهالـة مـن التقديس كان لها أثر سيء في خنوع النـاس وخضوعهـم للظلـم والفسـاد، بمـن فيهـم الفقهـاء والأتقيـاء الذيـن عدوهـم رؤسـاء شـرعيين للأمـة مـن النـاحيتين الزمنيـة والروحيـة. وترسـخ فـي وعـي النـاس أن العباسيين أصحاب حق الهي في الحكم فهم سلطان الله في أرضه[59]. وأحـاطوا أنفسـهم بنظـام تشـريفات معقـد متخذيـن حجاجـاً ورؤسـاء تشريفات يسـترونهم عـن عيـون الناس. يقول ابن الحجاج ساخرا:

قد قلت لما أن رجعت مولينـا

ومعي مدابر من الكتـــــاب

نحن الذين لهم يقال وكلنـــا

قل العصا وطريدة الحجـــاب

قوم اذا قصدوا الملوك لمطلب

نتلت شواربهم على الأبـواب[60]

ويقول:

يا ربرب اعبر بنا الى ملـك

توّجهُ الله بالمهابـــــات

يقول للريح كلما عصفـــت

هل لك يا ريح في مباراتي[61]

وقد احتكر هؤلاء الحجاب ـ وأكثرهم مـن الأعـاجم ـ لأنفسـهم شـؤون الحكـم. وكـان الخليفة يستقبل من يدخل عليه وكبير حجابـه فـي جـانب، وفـي جـانب آخـر كبيـر حراسـه المعروف باسم الجلاد والنطع دائما أمامـه، فمن غضب عليه أطاح برأسه توا[62]. وكان الحكم استبداديا لا يحسب حسابا للرعيـة ، فـالأمر كلـه بيـد السـلطان يولـي الـولاة والـوزراء والقـواد وأصحـاب الشـرطة والمحتسبين ويعزلهم متى شاء. يقول ابن حجاج ساخرا، وقد قلده الوزير ناحية ثـم عزله في اليوم الثاني:

يوم الخميس بعثتنـي

وصرفتني يوم الأحـد

ما قام عمرو في الولا

يـة ساعة حتى قعـــد[63]

ولايخفى أن اسم "عمرو" اكتسب العمومية كما هوالحال في زيد عند العـرب. وكـان الخليفة يختار الوالي غالبا مـن أهل بيتـه أو من أكفاء حاشيته ـ وخاصة من الأعاجم ـ

وكانت الولاية تكاد تكون ارثـا عائليا. يقول الرستمي في الصاحب بن عباد:

ورث الوزارة كابرا عن كابر
موصولة الاسناد بالاسناد
يروي عن العباس عباد وزا
رته واسماعيل عن عباد[64]

وقد أغدق الخلفاء على ولاتهم ووزراتهم وقوادهم العطايا والهبات، وفتحوا عالما من الألقاب والكنى يمنحونها من يشاؤون، يقول أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي ساخرا:

مالي رأيت بني العباس قد فتحوا
من الكنى ومن الألقاب أبوابا
ولقبوا رجلا لو عاش أولهم،
ما كان يرضى به للحش بوابا
قل للدراهم في كفي خليفتنا
هذا فأنفق في الأقوام ألقابا[65]

وكثيرا ما كان يحتل المناصب العليا أناس ليسوا أهلا لها فكانوا مادة دسمة لشعراء السخرية يقول ابن الرومي:

أضحى وزيرا أبو يعلى وحق له
بعد المشارط والمقراض والحلم
وقد قال قوم وغاظتهم كتابته
لو شئت يا رب ما علمت بالقلم[66]

ويقول في اسماعيل بن بلبل:

عجب الناس من أبي الصقر اذ ولـ
ـي بعد الاجازة الديوانا
ولعمري ما ذاك أعجب من أن
كان علجا فصار من شيبانا
ان للجد كيمياء اذا ما
مس كلبا أحاله انسانا
يفعل الله ما يشاء كما شا
ء متى شاء كائنا ما كانا[67]

وكثيرا ما كان القضاة الذين يعينهم الخلفاء حمقى لا يصلحون. يقول ابن لنكك:

أو ما رأيت ملوك عصرك أصبحوا
يتجملون بكل قاض أحمق[68]

بل ربما كانوا قضاة زناه فاسقين، فيتخذ منهم شعراء السخرية وسيلة يقدحون من خلالها في السلطة العليا نفسها:

قاض يرى الحد في الزناء ولا
يرى على من يلوط من باس
أمرنا برتشي وحاكمنا
يلوط والراس شر ما راس
لا أحسب الجور ينقضي وعلى
الأمة وال من آل عباس[69]

ولا نكاد نجد من يثور على نظام الوراثة في الخلافة فيما عدا شعراء السخرية، فنجدهم يهتفون ساخرين عندما يعهد محمد الأمين لابنه الطفل خليفة من بعده ويأخذ له العهد على الناس الفضل بن الربيع وزيره:

أضاع الخلافة غش الوزير
وفسق الامام ورأي المشير
فعال الخليفة أعجوبة،
وأعجب منه فعال الوزير
وأعجب من ذا وذا اننا
نبايع للطفل فينا الصغير

ومن لبس يحسن ممسح انفه

ولم يخل من متنه حجر ظبر

وما ذاك الا بياغ وغـــــاو

يريدان نفض الكتاب المنيـر

وهذان لولا انقلاب الزمـــان

أقي العير هذان أم في النفير

ولكنها فتن كالجبـــــــا

ل نرتع فيها بصنع الحفير[70]

وقد كانت تتحكم بالخليفة أهواؤه فيعزل في كثير من الأحيان من يعينهم ويفتك بهم، ويصادر أموالهم وأموال عائلاتهم على الرغم من صداقته لهم.

فأبو جعفر المنصور يفتك بأبي أيوب المورياني وسليمان بن مخلد ويصادر أموالهما[71] والرشيد يقتل فضيل بن عمران[72] وينكب أسرة البرامكة بكاملها على الرغم مما قدموه من خدمات له ولدولته[73]. وأنكى من ذلك أن بعضهم اتخذ تنورا من الحديد غرست فيه المسامير قائمة في الداخل كان يدخل فيه المغضوب عليهم ممن صودرت أموالهم لتعذيبهم، وكان باشراف ابن الزيات والذي لقي حتفه فيه فيما بعد[74]. وطبيعي أن تدفع الأموال الوافرة في العصر العباسي الى الحياة بكل متعها المادية، وكانت الطبقة الأرستقراطية من الخلفاء وأبنائهم ووزرائهم وقادتهم وولاتهم تنفق ببذخ على حساب الطبقة المحرومة البائسة[75]. وكان للحكم الاستبدادي ولتجمع الثروة في أيدي قلة من الصفوة أثره في الأدب والشعر، فذل كثير من الشعراء للخلفاء والأمراء يتزلفونهم ويتملقونهم وينيبون كرامتهم على أعتابهم للحصول على لقمة العيش. فالخليع الشامي يهتف بفزع لسيف الدولة:

أنا شاعر أنا شاكر أنا ناشر

أنا راجل أنا جائع أنا عاري[76]

وسلم الخاسر يربط بقاء الدين والدنيا ببقاء الخليفة والوزير:

بقاء الدين والدنيا جميعا

اذا بقي الخليفة والوزير[77]

وأبو العتاهية الزاهد يهدي الى الفضل نعلا يكتب عليه:

نعل بعثت بها لتلبسهـــا

تسعى بها قدم الى المجـد

لو كنت أقدر أن أشركهـا

خدي جعلت شراكها خدي[78]

وأبو دلامة يعمد الى الحيلة والخداع للحصول على مال الخليفة فيقول في قصيدة مدح للمنصور على لسان زوجه:

اخرج لتبغ لنا مالاً ومزرعة

كما لجيراننا مال ومزدرع

واخدع خليفتنا عنا بمسألة

ان الخليفة للسؤال ينخدع[79]

ولكن بعض شعراء السخرية خرجوا على هذا النمط من التسول، فابن الرومي يهاجم شعراء عصره وانزلاقهم في التملق[80] ويعتبر الحصول على المال من الخلفاء والأمراء حقا من حقوق الشعراء[81] فاذا

امتنعوا عن العطاء فما على الشاعر الا أن يهجوهم[82]. وبشار بن برد يتجرأ في الطلب فلا يصح أن يصاب الأثرياء بالتخمة في حين يتضور الفقراء:

شبع الأمير وجوع صاحبه
عار الحياة فأطعموا وكلوا[83]

وفي حين يرى الناشيء الأصغر ان عتاب الملوك لا يجدي نفعا وانهم حتى في حالة تودهم فانما يتكلفون[84] فان ابن الحجاج يقدم صورة ساخرة جدا لهذا التأثير:

ان كنت تحتقر العتاب تكبرا
فالفيل يعمل فيه قرص البرغش[85]

كما تعرض شعراء السخرية بجرأة لادعاءات الخلفاء ومعرفة الأدب والشعر، وكشفوا زيف هذه الادعاءات، وحالة التناقض التي يعيشها هؤلاء مع أنفسهم. وانهم في حقيقة الأمر ليسوا أكثر من براذين وبهائم وقردة وخفافيش وجهلة لا تفهم الشعر ولا علم لها بالغناء[86].

كما تناول شعراء السخرية عبث الخلفاء والأمراء وصوروا انهماكهم في الخمرة وشغل وقتهم بالمتع كافة[87] وانهم ازاء هذه الموبقات التي يمارسونها عليهم أن يعتزلوا الخلافة حيث لا يستقيم الدين مع الكذب والرياء والنفاق[88]. ومع قهر السلطة وتسلط الخلفاء وتكرر الحال على نفس المنوال فلا داعي لأن يحزن أحد على فقد خليفة ، أو يفرح لمجيء آخر:

الحمد لله لا صبر ولا جلد
ولا عزاء اذا أهل البلا رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد
وآخر قام لم يفرح به أحد
فمر هذا ومر الشؤم يتبعه
وقام هذا فقام الويل والنكد[89]

فاذا ما تقنع هؤلاء بسمات الدين وبرزوا في صور غير صورهم الحقيقية فانما يخدعون أنفسهم، فالحقيقة لا تخفى على أحد. يقول ابن لنكك معبرا عن فقدان الرجاء:

لاتخدعنك اللحى والصور
تسعة أعشار من ترى بقر
تراهم كالسحاب منتشرا
وليس فيه لطالب مطر
في شجر السرو منهم مثل
له رواء وماله ثمر[90]

وليس للإنسان والحال ثابتة لا تتغير الا الصبر راضيا بغلبه، وأن يتجه بأنظاره الى السماء، ويصور أبو الينبغي حالة التناقض التي يحياها المجتمع وانقلاب الموازين:

صبرا على الذل والصغار
يا خالق الليل والنهار
كم من حمار على جواد
ومن جواد بلا حمار[91]

وأدى انهماك الطبقة الحاكمة في متعها الخاصة الى اهمال حاد لشؤون الرعية. فقد كانت الأموال تصب في حجور الخلفاء ومن يحف بهم من وزراء وقواد وولاة وعلماء وشعراء ومغنين. فالمنصور فرض لكل

شخص من أهل بيته ألف ألف درهم في كل عام[92] وخلف حين توفي أربعة عشر مليونا من الدنانير وستماية مليون من الدراهم[93]. وبلغت غلّة الخيزران زوج المهدي من اقطاعاتها سنويا مئة وستين مليون درهم[94] وكانت اقطاعات محمد بن سليمان بن علي العباسي والي البصرة تدر عليه يوميا مئة ألف درهم[95]. وخلف عمرو بن مسعدة وزير المأمون بعد وفاته ٥٥ ألف ألف دينار. ونقل ذلك الى المأمون فقال: هذا قليل لمن اتصل بنا وطالت خدمته لنا[96]. ودفع المتوكل لكل من البحتري والصيمري عشرة آلاف درهم أنهما أضحكا وهرجا في مجلسه[97] ودفع للحسين الخليع مئة دينار عن كل بيت[98]. ووهب الفضل بن يحي مروان بن أبي حفصة سبع مئة ألف درهم[99]. وأنفق المتوكل على الهاروني والجوسق وهما من قصوره مئة مليون درهم. كما كان له أربعة آلاف سرية وقتل وفي بيوت الأموال أربعة مليارات من الدنانير عدا الدراهم[100]. وعندما ينعى له اسحق الموصلي المغني يغتم ويحزن ، ويقول ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته[101].

ومن الطريف أنه في حين كان الخلفاء يفتنون بالصيد بالبزاة والشواهين والصقور[102] كان العامة يتفرجون على الحوائين والقرادين، ويجلسون حول القصاص يطرفونهم بحكايات خيالية[103]. كما أدى هذا الانهماك في المتع، الى جانب تعسف الاقطاع واضطراب حبل الأمن الى استشراء الفساد، فنخرت الفتن في جسم الدولة، فاضطربت سياسيا واقتصاديا وعرقيا، ونشبت الثورات في الداخل وفي الخارج[104]. واشتد الصراع بين الدولة والخارجين عليها، وبين العرب والفرس والترك. كما اشتد الصراع في المذاهب والملل والنحل. وانتشر اللصوص وقطاع الطرق ينهبون ويسلبون ويقتلون. وفقد الناس الاحساس بالأمان. ووقف الخلفاء عاجزين ازاء هذه الثورات والفتن. واستولى الجنود الترك ووزراؤهم وغلمانهم ونساؤهم على مصادر المال. واستغلها قادتهم لاستمالة ورشوة أولياء العهد للانقلاب على آبائهم الخلفاء وأصبح الخلفاء ألعوبة في يد الأتراك بعد الفرس يعزلونهم ويولونهم ويغتالونهم. واشتد النزاع العربي الشعوبي، واشتدت ثورات الشيعة ، وكلفت هذه الثورات والفتن الدولة الدم والمال والجهد. وينظر شاعر السخرية أبو اسحق الصابي بمرارة الى ما وصلت اليه الدولة من انحطاط قائلا:

ألا قل لأهل الدولة المنذلة التي
ثوى داؤها فينا وأعيا دواؤها
لقد كبت الدنيا على أم وجهها
فنحن لها أرض وأنتم سماؤها
فلا تفرحوا بالحظ منها فانه
دليل على هذا المحال بقاؤها[105]

(3)

بالغ شعراء المديح في تمجيد الخلفاء والأمراء وفي اضفاء الصفات الحميدة عليهم. فطمسوا كثيرا من الحقائق. وجعلوا الحياة تبدو صافية رائعة، وغفلوا أو تغافلوا عما فيها من عيوب وكدر وقتامة. وما فيها من اختلال في الموازين والقيم. ومن ثم فمن حق الشعراء الساخرين أن نحتفل بهم لما تميزوا به من جرأة ومغامرة ونقد، ففتحوا العيون على عيوب سياسية واجتماعية فكانوا قريبين من النفوس أكثر من شعراء المديح والغزل والوصف و الرثاء(106).

لقد جاؤوا بلون جديد من الشعر يبني أكثر مما يهدم، ويقوم الأخلاق أكثر مما يشنع بها. فساعدوا على يقظة الوعي الأخلاقي. عدلوا عن التهاجي بالأحساب والأنساب والعصبيات القبلية . وتظلموا في مطاعن خلقية ونفسية. فسعوا الى تطهير المجتمع من المثالب الفردية وبجرأة لا نجدها عند غيرهم(107).

لم يقتصر شعراء السخرية على انتقاد نظام الحكم أو نظام الوراثة في الخلافة، وانما اتجهوا الى ما ترتب على سوء الحكم والادارة من فساد في الحالة الاقتصادية وتدهور في الأوضاع الاجتماعية. تحدثوا عن الضعة والهوان والغدر والبخل والشح والحماقة والنفاق وغيرها من مظاهر نجمت عن الحضارة. وتحدثوا عن الفقر والجوع والمرض فكشفوا عن الهوة السحيقة بين الأغنياء والفقراء. وقدموا ذلك في لوحات ساخرة واقعية تظهر الحياة على حقيقتها دون رتوش ودون مبالغة.

كان الصراع الطبقي على أشده. وكان الثراء الفاحش يعمل جنبا الى جنب مع الفقر المدقع. ففي حين يغني مسلم بن الوليد:

هل العيش الا أن أروح مع الصبا
وأغدو صريع الراح والأعين النجل(108)

ويشدو منصور النمري للرشيد:

ماذا ببغداد من طيب أفانين
ومن عجائب للدنيا وللدين
اذا الصبا نفحت والليل معتكر
فحرشت بين أغصان الرياحين(109)

ويترنم كشاجم أبو نصر بن أبي الفتح بوصف جونة طعام، في خمسة وثلاثين بيتا لا يترك لونا من الطعام أو الفاكهة الا ويذكره(110) يهتف أبو فرعون الساسي بألم للأمير:

وصبية مثل فراخ الذر
سود الوجوه كسواد القدر
جاء الشتاء وهم بشر
وبغير قمص وبغير أزر
وبعضهم ملتصق بصدري
وبعضهم منحجر بحجري
أسبغهم الى أصول الجدر
هذا جميع قصتي وأمري

فارحم عيالي وتَوَلَّ أمـــري
كنيت نفسي كنية في شعـري
أنا أبو الفقر وأم الفقـــــر[111]

ويهتف أبو الشمقمق بحرقة:

ما جمع الناس لدنياهـــــم
أنفع في البيت من الخبـــز
وقد دنا الفطر وصبياتنـــا
ليسوا بذي تمـــر ولا أرز
وذاك أن الدهر عاداهـــم
عداوة الشاهين للـــــوزّ
كانت لهم عنز فأودى بهـا
وأجدبوا من لبن العنـــز
فلو رأوا خبزا على شاهق
لأسرعوا للخبز بالجمـــز
ولو أطاقوا القفز ما فاتهم
وكيف للجائع بالقفـــــز[112]

ويصرخ ابن سكرة:

جملة أمري أنني مفلس
وليس للمفلس اخـــوان
وكل ذي عيش بلا درهم
فعيشه ظلم وعـــدوان[113]

واذا كان ابن سكرة يطرد جوعه بالخبز اليابس[114] فان الساسي يقفل على نفسه الباب لئلا يرى الناس سوء حاله[115] وخالد المهلبي يتغذى على الأمنيات فيحلم بالقوت وبامرأة صالحة ويأمل أن يكون لديه منزل وأن يبقى بعيدا عن عيون الدرك[116]. وأبو الشمقمق يعتبر مديح الأمراء تجارة تسد رمق أولاده فيقول للأمير:

ان العيال تركتهـــــم
بالمصر خبزهم العصارة
وشرابهم بول الحمـــا
ر مزاجه بول الحمـــارة
ولقد غلوت وليس لي
الا مديحك من تجـــارة[117]

ويقدم ابن الحجاج لوحة ساخرة تصور بصدق التناقض الطبقي في المجتمع العباسي آنذاك. فالشعراء في نظره سنانير الدولة يقتاتون من فضلات ما يرمى لهم[118]. بل هو يود أن يكون كلبا من كلاب الأمير لعله يحصل على اللحم الذي يرمى لها. فلننظر الى أبياته التي لا تقف عند معانيها المباشرة:

رأيت كلاب مولانا وقوفـــا
ورابضة على ظهر الطريق
تغذى بالجدا فوددت أنـــي
وحق الله خركوش سلوقي
فيا مولاي رافقني بكلـــب
لآكل كل يوم مع رفيقـــي[119]

فهو يصور في سخرية مريرة وضعا اقتصاديا مزريا وصل اليه بعض الناس، حيث بلغت بهم الحال أن يكونوا دون الكلاب فيتمنون اللحاق بها. فالتناقض اقتصاديا أو اجتماعيا يولد المرارة ويخلق اليأس ويبعث الحيرة في النفوس:

عليك باليأس من النـــاس،
ان الغنى ويحك في اليأس[120]

ويخلق نوعا من النفور والتكبر لدى الشعراء

الساخرين فيحتقرون الأغنياء الذين يستعبدون الناس بأموالهم وينقلبون الى ذم الزمن الذي يرفع سفلة الناس ويهبط بأخيارهم:

دهر علا الوضيع به ... وترى الشريف يحطه شرفه[121]

وينظرون الى قيم العصر وقد اختلت، والى ميزان التكافؤ وقد رجحت فيه كفة الساقطين:

طار قوم بخفة الوزن حتى ... لحقوا رفعة بقاب العقاب

ورسا الراجحون من جلة النا ... س رسو الجبال ذات الهضاب[122]

فهو زمن تعس يستعبد فيه الأحرار، ويعلو فيه الأوغاد:

ملك الأكارم فاسترق رقابهم ... وتراه رقا في يد الأوغاد[123]

وتستأسد فيه الثعالب فتبول على رؤوس الآساد:

فكم رأينا في الدهر من أسد ... بالت على رأسه ثعالبه[124]

وينتشر فيه الخداع والرياء ويغدو ترك القبح فيه لونا من الحسان:

إنا لفي زمن ترك القبيح به ... من أكثر الناس احسان واجمال[125]

فود الناس خداع في خداع ودينهم نفاق في نفاق:

فلم أر ودهم الا خداعا ... ولم أر دينهم الا نفاقا[126]

وحمل شعراء السخرية الزمن جريرة الوضع الاقتصادي السيء والزمن هنا لا يعني سوى السلطة الثرية التي تأمر وتنهى، فهو زمن الأوعال السمان الذين أثروا على حساب الجرذان العجاف:

عجبت من الزمان وأي شيء ... عجيب لا أراه من الزمان

أتأخذ قوت جرذان عجاف ... فتجعله لأوعال سمان[127]

ويموت فيه دور الشعر العظيم لتتزاحم فيه الخفافيش:

ألا انما أبكي على الشعر أنني ... أرى كل وطواط يزاحم في الشعر[128]

فقد استشرى التملق عند الشعراء وغمرهم الخنوع فلهثوا وراء المصلحة الشخصية على حساب المصلحة العامة. يقول ابن سكرة:

كل العجائب قد سمعت وما أرى ... اني سمعت لشاعر قرنان

قرن يحك به السماء ومثله ... ذنب يزور الحوت في الأزمان

واذا تحدث أحدثت لهواته ... فترى الأتوف تلوذ بالأردان

وترى أخادعه تعط كأرنب ... عكفت عليه مناسر العقبان[129]

فالزمن لا مكان فيه للأحرار، ولا للجود، فقد تولى قروده سدة الحكم، يقول ابن لنكك:

مضى الأحرار وانقرضوا وبادوا ... وخلفني الزمان على علوج

وقالوا قد لزمت البيت جـــــدا
فقلت لفقد فائدة الخـــــروج
لمن ألقى اذا أبصرت فيهـــم
قرودا راكبين على الســـروج
زمان عز فيه الجود حتـــــى
تعالى الجود في أعلى البروج[130]

ويقول ابن نباتة:

بلاد أنفس الأحرار فيهـــا
كضب القاع تروى بالنسيم
يجوز بها وينفق كل شيء
سوى الآداب طرا والعلوم[131]

انـه زمـن الحماقـة والحمقـى، زمـن الرقاعـة والمجانـة، فـالحمقى والمجـان يصلـون الـى مآربهم وينعمون، في حين يشقى أهل العقول عبثا، يقول أبو الرقعمق:

وقد مجنت وعلّمت المجون فمـــا
أدعى بشيء سوى رب المجانات
وذاك أني رأيت العقل مطرحـــــا
فجئت أهل زماني بالحماقـــــات[132]

ويقول:

قد ربحنا بالحماقـــا
ت على أهل العقول[133]

لقد أصبحت الحماقـة مهنـة تحـترف، يثـاب عليهـا أصحابهـا عنـد الأمـراء وعنـد عليـة القوم بل وعند العامة، حرفة تدر عليهم مـالا يدره العقل والمعرفة. وعبر الشـعر السـاخر عن هذا الضياع تعبيرا رائعا.

يقول أبو العجل:

عذلوني على الحماقة جهـــــلا
وهي من عقلهم ألذ وأحلـــــى
لو لقوا ما لقيت من حرفـــــة
العقل لساروا الى الحماقة رسلا
أذعن الناس لي جميعا وقالـوا
يا أبا العجل مرحبين وسهـــلا
فبها - لا عدمتها - صرت فيهم
سيدا أتقى ورأسا ورجـــــلا[134]

وهو يصل الـى الامـارة والـى السيادة عـن طريق التحامق ويصبـح لـه مـن الملـك ومـن المال ما لم يكن يستطع أن يحصل عليـه لـو نهج نهجا عقليا:

فأصبحت في الحمقى أميرا مؤمرا
وما أحد في الناس يمكنه عزلـي
وصير لي حمقى بغالا وغلمـــــة
وكنت زمان العقل ممتطيا رجلي[135]

وينبغي أن ننتبـه جيدا لقولـه "في الحمقـى" فهي ترتبط ارتباطـا وثيقـا بمصـادر السـلطة لأنهـم هـم الذيـن يملكـون المـال ويملكـون العطـاء وبيدهـم أن يبقـوا فـي المركـز مـن يشاؤون أو يعزلوه.

ولم يكن هذا الاضطراب الاجتمـاعي في بغداد وحدها، بل كـان سـائدا فـي جميـع الأقطـار التـي تقـع تحـت سـلطة الخلافـة، ولنستمع الى أبي العجل، وهو ينتقل من بلـد الى بلد يبحث عن المعرفة لعلها تكون وسيلة تمده بما يقتات به فـي زمـن التنـاقض. فـلا يجد الا الاخفاق والفشل، ذلـك أن العصـر لـم يعد يؤمن بالمعرفـة الا فـي بعدهـا النظـري.

ومن ثم فليبحث عما يرضي أصحاب الشأن فيترك العقل والتعاقل وينخرط في سلك الحمقى:

اكفف ملامك محسنا
أو مجملا متطولا
أعلى الحماقة لمتني
قد كنت ملك أولا
فدخلت مصر وأرضها
والشام ثم والموصلا
وقرى الجزيرة لم أدع
فيها لحي منزلا
الا حللت فناءه
بالعقل كي أتمولا
واذا التعاقل حرفة
فعزمت أن أتحولا
فانظر الي أما ترى
حال الحماقة أجملا
من ذا عليه مؤنبي
حتى أعود فأعقلا[136]

واذا كان حال الأمة على هذه الصورة من الرياء والضياع، فليغن الخباز البلدي:

ان جنت أرضا أهلها كلهم
عور فغمّض عينيك الواحدة[137]

فالحياة ماتت فيها المواهب ولا مجال فيها للابداع، ذاك أن التشمير فيها كالتواني، وحرمان العطية كالنجاح. والانسان يكد مهجته ومع ذلك فالأرزاق في ضرب القداح. واضطرب الحابل بالنابل وغلفت الحيرة النفوس فجعلتها سكرى وسادت بين الأمراء وعامة الناس، فالجميع يشرب من كأس واحدة هي كأس الجهل:

نحن بأبوابكم حيارى
وأنتم مثلنا حيارى
فبعضنا يستجير بعضا
وبعضنا عندكم أسارى
وكلنا من شراب جهل
بوصف أحوالنا سكارى
وأي عذر لنا فحول
تُعَدُّ في جملة العذارى[138]

ويلتقي في الحمق الأمراء والفقراء وتسود بين الجميع لغة جديدة قائمة على التهكم واللامبالاة تمثل عصر عدم الاكتراث. واذا الأمير أبو علي يصبح لا نظير له لأنه يطرب الى صوت الطباخين في بلد تبعد عنه منات الأميال تماما كما يطرب السرير من رسالة كتبها له الحصير يعلمه فيها أن الفصيل هو ابن البعير. ومثل هذا الأمير جدير بأن يطير له الشاعر على حمارة عجفاء تنهب الأرض نهبا:

كتب الحصير الى السرير
أن الفصيل بن البعير
فلمثلها طرب الأمير
الى طباهجة بغير
فلأمنعن حمارتي
سنتين من علف الشعير
لا هم الا أن تطير من الهزال مع الطيور[135]

والحيرة تفضي الى الشك. والتناقض الطبقي يخلق التذمر في النفوس، ويبعث فيها

اليأس لا سيما وهي ترى النعم عند غير مستحقيها، حيث يرفل الأغبياء في حلل النعيم في حين يحرم العقلاء من لقمة العيش الكريم. وحيث يعيش اولئك في القصور ويقضي هؤلاء لياليهم في العشش يطاردهم عسكر من البق والبراغيث تقتات أجسادهم[140]. ولا يجد الأصلع من المال ما يمكنه من أن يحلق شعره[141] ويدفعهم اليأس الى التندر بالبخل والبخلاء والى النقمة العارمة على ذوي المال والمركز والوظيفة[142]، بل هم يتجاوزون هذا الى ذم جميع الناس[143] ويتطاولون في سخريتهم فيخاطبون الذات الالهية محتجين على ما وصلت اليه الحال من تناقض:

يا قاسم الرزق لم خاتني القسم
ما أنت متهم قل لي من أتهم ؟
ان كان نجمي نحسا أنت خالقه
فأنت في الحالتين الخصم والحكم[144]

ويربطون العبادات بالتحصيل المادي، فلماذا يصلي الفقراء ولا مال ولا خيل ولا مناطق ولا عبيد ولا فتر ولا أرض لديهم؟ الا يعتبر تعبدهم في الحال هذه نفاقا؟[145].

أنهم مضروبون مقيدون مصادرة حريتهم لا يملكون من أمرهم شيئا
أيها السائل عن حالي أنا المضروب زيد
وأنا المحبوس لكن ليس في رجلي قيد[146]

وعلى الرغم من قدرتهم وسعة معرفتهم يموتون دون أن تحصل نفوسهم شيئا من أسرار القدر الذي يكمن خلف هذا التناقض:

أليس عجيبا بأن امرءا
لطيف الخصام دقيق الكلم
يموت وما حصلت نفسه
سوى علمه أنه ما علم[147]

(4)

وبناء على ما تقدم يمكن القول أن الشعر الساخر كان ذا وظيفة اجتماعية عظيمة الأثر. فقد حاول شعراؤه أن يخففوا أعباء الواقع عن كواهل الناس في عصر التوزع السياسي والانقسامات المتناحرة في الأمة الواحدة. فاختصموا الحكام وخرجوا عليهم من أجل طبقات الشعب الكادحة. وتناولوا موضوعات شعبية شائعة بأسلوب شعبي سهل. فكانوا أكثر التصاقا بالطبقات الكادحة لأن أبطالها من أبناء الشعب ومن كادحيه، ولأن هؤلاء الأبطال كثيرا ما يتخذون من رؤسائهم موضوعات لهزلهم ودعاباتهم ومجونهم. وهم حينئذ أكثر التصاقا بأممهم وأصدق تصويرا لمشاعر العامة نحو هؤلاء الحاكمين[148].

ونقل الشعراء الساخرون بصدق التناقض الرهيب بين ذوي الجاه والسلطة والمنصب وبين الفقراء الكادحين الذين يصارعون من أجل لقمة العيش. وكانوا أحيانا يتناولون بعد ما بين الأشياء والطبيعة ويركضون في حلبة يتقابل عند طرفيها الواقع من ناحية ومثل الكمال من ناحية

أخرى[149]. فمنحوا الأدب الساخر دورا هاما في الاصطلاح الاجتماعي حيث كانت سخريتهم سلاحا يطعنون به الطبقة البرجوازية هازئين من عاداتها وأنانيتها وطمعها وحبها للاستغلال[150]. وكان شعرهم نوعا من القصاص استخدمته الهيئة الاجتماعية ممثلة بشعرائها الساخرين لحماية تقاليدها وأساليب سلوكها. كان سلاحا بيد المجتمع لرد الناس الى الجادة السوية، ورادعا للشذوذ عن أنظمة المجتمع فهو أداة الكمال المطلق[151]. وعمل على أن يحقق ضربا من التغيير الاجتماعي بتقوية الروح الجماعية والتعاطف الجمعي بين أفراد الجماعة الواحدة، فقام الشاعر الساخر بدور الاستهانة وعدم الاكتراث[152] فكان أخلاقيا في قناع عالم، فكأنه عالم تشريح لا يشرح الا ليثير فينا التقزز[153].

وفي عناية الأدباء الكبار وعمالقة الفكر بتوفير عنصر الفكاهة في أدبهم دليل واضح على ما ذهبنا اليه. فقد استخدم الجاحظ عنصر السخرية عنصرا أساسيا في أدبه فأثرى به المواد التي تناولها. لم يستخدمه لبيعد الملل من استطراداته وليبعث الانشراح في النفس فحسب بل ليرسخ مفاهيم فكرية وآراء كان يطرحها وقد بين غرضه من استخدام السخرية في مقدمة كتابه البخلاء[154] كما عمد ابن قتيبة الى عنصر السخرية في مقدمة كتابه عيون الأخبار وتحدى به المتزمتين والمتنسكين.

فالفكاهة لون من ألوان الجمال وعامل من عوامل الاستمالة، وتدخل في حياة الأمة والأشراف تماما كما هي في حياة العامة[155] وعمد اليه صاحب العقد الفريد ورأى فيه مجلبا للراحة ومعدنا للسرور [156]. وكان الأساس الذي أقام عليه التوحيدي دراساته لا سيما في كتابيه الامتاع والمؤانسة ومثالب الوزيرين[157]. وحظي باهتمام النويري في كتابه نهاية الأرب فخصه بباب عقده للمجون والنوادر والفكاهات والملح[158]. واتخذ منه الأزدي وسيلة رئيسة في كتابه "حكاية أبي القاسم البغدادي" قص فيه أحوال المجتمع وظروفه السياسية والاجتماعية والاقتصادية بأسلوب ساخر منذ بداية الكتاب حتى نهايته[159] ولم يكن هؤلاء العلماء باستخدامهم عنصر السخرية يسعون الى النكتة والمزاح أو الى التهكم والهزل الذي يراد به الجد. بل كان هدفهم أسمى من ذلك بكثير، كانوا يعبرون عن موقف الانسان تجاه القدر وظلم الدهر وقسوة الطبيعة وعيوب المجتمع ونقائص الناس. وكانوا يعبرون عن موقف الانسان تجاه الانسان في أخلاقياته وسلوكياته. كانوا هم والشعراء الساخرون يتأملون هذه الأمور جميعا يسخرون منها دون أن يثوروا أو يسبوا أو يحتدوا بل هم يتأملون الأشياء بهدوء ويبصرون سخافتها وتفاهتها وصغرها ويطون عليها جميعا[160]. وعليه فقد كانوا أكثر صدقا من المؤرخين. ذلك أن المؤرخ

يكتب ما يملى عليه فيلغي الحقائق ويثبت الزيف. في حين يطرح الأدباء الساخرون الأمور على واقعيتها ويتركون للقارىء أن يتأمل وأن يفكر وأن يصل الى النتائج.

الهوامش

1 ـ الأغاني 6/22، 5/323 وعيون الأنباء في طبقات الأطباء 2/58 ومروج الذهب 3/348.

2 ـ ديوان بشار 3/94، 104 4/207.

3 ـ ديوان أبي نواس 12، 27.

4 ـ أدباء العرب في الأعصر العباسية 2/18.

5 ـ حديث الأربعاء 2/69.

6 ـ حديث الأربعاء 2/36.

7 ـ ابن الرومي، محمد عبد الغني حسن 14 وينظر ابن الرومي حياته من شعره للعقاد 49.

8 ـ ابن الرومي، أحمد خالد 20.

9 ـ حكاية أبي القاسم البغدادي 73.

10 ـ حديث الأربعاء 2/35.

11ـ مروج الذهب 3/411.

12 ـ العمدة 2/104.

13 ـ طبقات الشعراء 22.

14ـ طبقات الشعراء 216

15 ـ معاهد التنصيص 1/84

16 ـ طبقات الشعراء 201

17 ـ يتيمة الدهر 3/3

18 ـ طبقات الشعراء 271

19 ـ طبقات الشعراء 96

20 ـ طبقات الشعراء 100

21 ـ رسالة الغفران 476

22 ـ طبقات الشعراء 202

23 ـ ديوان أبي نواس 21، وينظر ديوانه 66.

24 ـ العمدة 1/232

25 ـ ديوان أبي نواس 11، 27

26 ـ حديث الأربعاء 2/10

27 ـ الأغاني 3/163 وينظر ديوان بشار 4/27

28 ـ الأغاني 3/163 وينظر ديوان بشار 3/277، 281

29 ـ الأغاني 3/231 ومعاهد التنصيص 1/296 وينظر ديوان بشار 4/214.

30 ـ أدباء العرب في الأعصر العباسية 2/88

31 ـ الأغاني 5/317، 386.

32 ـ ديوان ابن الرومي 1/105 وينظر وفيات الأعيان 4/286 وتاريخ بغداد 3/83.

33 ـ ديوان دعبل 210

34 ـ ديوان ابن الرومي 1/299

35 ـ ديوان دعبل 190

36 ـ يتيمة الدهر 3/22

37 ـ ديوان بشار 4/118

38 ـ ديوان بشار 4/115

39 ـ ديوان بشار 4/157

40 ـ ديوان بشار 1/377، 3/229 وينظر الأغاني 3/166.

41 ـ ديوان أبي نواس 46، 58، 110، 113، 119 وينظر طبقات الشعراء 195، 200.

42 ـ ديوان ابن الرومي 1/204 وينظر وفيات الأعيان 3/360

43 ـ طبقات الشعراء 226

44 ـ يتيمة الدهر 2/260

45 ـ طبقات الشعراء 227

46 - ديوان أبي نواس 43، 212

47 - الأغاني 3/145

48 - ديوان أبي نواس 7

49 – ديوان ابن الرومي 1/155، 386، 3/1012، 5/1900

50 - الفكاهة في الأدب 289

51 - معاهد التنصيص 2/12

52 - طبقات الشعراء 122

53 - ديوان بشار 4/154، وينظر يتيمة الدهر 3/15، 4/157

54 - ديوان أبي نواس 36، 60، 121، 126، 146، 167، 200، 265، 313، 315.

55 - اللزوميات 1/391

56 - اللزوميات 2/345 مبطان: ضخم البطن، النجر: الأصل مرطان: لايفهم كلامه. كلاب : بنو كلاب ، أشطان : حبال ، أعطان : مبارك الابل والصلاة فيها مكروهة.

57 - اللزوميات 2/183.

58 - البيان والتبيين 2/349

59 - تاريخ الرسل والملوك 6/331.

60 - يتيمة الدهر 3/89

61 - يتيمة الدهر 3/89

62 – البيان والتبيين 2/323 وينظر العصر العباسي الأول 20.

63 - يتيمة الدهر 3/80

64 - معاهد التنصيص 2/112

65 - يتيمة الدهر 4/230

66 - ديوان ابن الرومي 6/2294

67 - ديوان ابن الرومي 6/2558

68 - يتيمة الدهر 2/350

69 - يتيمة الدهر 2/350

70 - مروج الذهب 3/377

71 - الوزراء والكتاب 121

72 - الوزراء والكتاب 121

73 - الوزراء والكتاب 340

74 - مروج الذهب 1/471

75 – ينظر في هذا الصدد عصر المأمون 1/317.

76 - يتيمة الدهر 1/271

77 - طبقات الشعراء 101

78 - الوزراء والكتاب 295

79 - معاهد التنصيص 2/213

80 - ديوان ابن الرومي 1/75

81 - ديوان ابن الرومي 1/135

82 - ديوان ابن الرومي 1/135، 246

83 - ديوان بشار 4/154

84 - يتيمة الدهر 1/232

85 - يتيمة الدهر 3/51

86 - ديوان ابن الرومي 1/75، 1/156

87 - ديوان دعبل 218

88 - ديوان ابن الرومي 1/338

89 - ديوان دعبل 168

90 - يتيمة الدهر 2/350

91 - طبقات الشعراء 130

92 - تاريخ الرسل والملوك 6/327

93 - مروج الذهب 2/292

94 - مروج الذهب 3/321

95 - الوزراء والكتاب 250

96 - النجوم الزاهرة 2/227

97 - مروج الذهب 3/474

98 - مروج الذهب 3/504

99 - الوزراء والكتاب 191

100 - مروج الذهب 3/504

101 - الأغاني 5/431

102 - الأغاني 6/240

103 - البيان والتبيين 1/69

104 - ينظر تاريخ الأمم والملوك أحداث السنوات 210، 212، 213، 214، 219- 227، 230- 232، 236، 237، 251، 272.

105 - يتيمة الدهر 1/285.

106 - الشعر العباسي - التيار الشعبي 86.

107 - فصول في الشعر ونقده 61.

108 - شرح ديوان صريع الغواني 43.

109 - طبقات الشعراء 246

110 - يتيمة الدهر 1/287 وينظر في وصف الطعام ومقدماته وموائده وآلاته زهر الآداب 2/341 - 350.

111 - طبقات الشعراء 377 وينظر قصيدته للحسن بن سهل 378.

112 - طبقات الشعراء 128.

113 - يتيمة الدهر 3/5.

114 - يتيمة الدهر 3/28.

115 - طبقات الشعراء 377

116 - طبقات الشعراء 314.

117 - طبقات الشعراء 314.

118 - يتيمة الدهر 3/58.

119 - يتيمة الدهر 3/57

120 - ديوان أبي نواس 601

121 - ديوان ابن الرومي 4/1571

122 - ديوان ابن الرومي 1/279 وينظر ديوانه 3/1145، 1592.

123 - معاهد التنصيص 1/158.

124 - ديوان دعبل 321.

125 - ديوان المتنبي 3/287

126 - ديوان المتنبي 2/303.

127 - يتيمة الدهر 3/52.

128 - طبقات الشعراء 294.

129 - يتيمة الدهر 3/16.

130 - يتيمة الدهر 2/348 وينظر 2/349.

131 - يتيمة الدهر 2/392.

132 - يتيمة الدهر 1/314.

133 - 1/330.

134 - طبقات الشعراء 341 حرفة: سوء حظ، رسلا: سهلا.

135 - طبقات الشعراء 341.

136 - طبقات الشعراء 341.

137 - يتيمة الدهر 2/212

138 - يتيمة الدهر 4/159

139 - يتيمة الدهر 1/323

140 - يتيمة الدهر 2/267

141 - يتيمة الدهر 2/299

142 - ديوان ابن الرومي 2/631، وينظر 4/1404 وينظر ديوان دعبل 190.

143 - ديوان ابن الرومي 2/569.

144 - يتيمة الدهر 2/213.

145 - يتيمة الدهر 4/157

146 ـ يتيمة الدهر 3/50.

147 ـ معاهد التنصيص 1/158.

148 ـ الشعر العباسي ـ التيار الشعبي 101.

149 ـ حصاد الهشيم 259 وينظر الفكاهة في الأدب 218.

150 ـ سيكولوجية الفكاهة والضحك 81.

151 ـ أبو حيان التوحيدي ـ الكيلاني 71.

152 ـ سيكولوجية الفكاهة والضحك 130.

153 ـ الضحك 105.

154 ـ البخلاء مقدمة الكتاب ص 5.

155 ـ عيون الأخبار مقدمة الكتاب(ى، ك).

156 ـ العقد الفريد 3/306.

157 ـ الامتاع والمؤانسة 3/27، 2/6.

158 ـ نهاية الأرب، السفر الرابع، الباب الثالث.

159 ـ حكاية أبي القاسم البغدادي تحقيق آدم متز.

160 ـ ثقافة الناقد الأدبي 232.

مصادر البحث ومراجعه

- ابن الرومي أحمد خالد الشركة التونسية للتوزيع 1977م
- ابن الرومي((حياته من شعره)) عباس محمود العقاد المكتبة التجارية - القاهرة 1390هـ، 1970م.
- ابن الرومي محمد عبد الغني حسن دار المعارف بمصر 1955م
- أبو التوحيدي ابراهيم الكيلاني دار المعارف - بيروت، مصر، سلسلة نوابغ الفكر العربي 1957م.
- أدباء العرب في الأعصر العباسية بطرس البستاني دار مارون عبود — بيروت 1979م
- الأغاني الاصفهاني(أبو الفرج علي بن الحسين) مؤسسة جمال للطباعة(مصور عن طبقة دار الكتب) بيروت.
- الامتاع والمؤانسة التوحيدي(أبو حيان) تصحيح وضبط أحمد أمين وأحمد الزين دار مكتبة الحياة - بيروت.
- البخلاء الجاحظ(أبو عثمان عمرو بن بحر) تحقيق طه الحاجري دار المعارف بمصر 1971م
- البيان والتبيين الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون مكتبة الجاحظ - بيروت ط 4.
- تاريخ الرسل والملوك الطبري(أبو جعفر محمد بن جرير) دار الكتب العلمية - بيروت 1407هـ، 1987م.
- تاريخ بغداد الخطيب البغدادي(ابو بكر أحمد بن علي) دار الكتاب العربي — بيروت
- ثقافة الناقد الأدبي محمد النويهي مكتبة الخانجي - القاهرة 1969م.
- حديث الأربعاءطه حسين دار المعارف بمصر 1976م
- حصاد الهشيم إبراهيم عبد القادر المازني المطبعة العصرية - القاهرة 1971م.
- حكاية أبي القاسم البغدادي محمد بن أحمد ابي المطهر الأزدي تحقيق آدم متز مطبعة هيدلبرج 1902م.
- ديوان ابن الرومي ابن الرومي(ابوالحسن علي بن العباس) تحقيق حسين نصار مطبعة دار الكتب - القاهرة 1973-1981م.
- ديوان أبي نواس ابو نواس(الحسن بن هاني) تحقيق احمد عبد المجيد الغزالي دار الكتاب العربي - بيروت 1402هـ،1982م.
- ديوان بشار بن برد بشار بن برد تحقيق الطاهر بن عاشور القاهرة 1950م.
- ديوان دعبل دعبل بن علي الخزاعي تحقيق عبد الصاحب عمران الدجيلي دار الكتاب اللبناني - بيروت 1972م.
- ديوان المتنبي المتنبي(أحمد بن الحسين) شرح أبي البقاء العكبري تحقيق مصطفى السقا وآخرون دار المعرفة - بيروت 1397هـ، 1978م

- رسالة الغفران المعري(أحمد بن عبد الله) تحقيق عائشة عبد الرحمن دار المعارف بمصر 1977م.
- زهر الآداب وثمر الألباب الحصري(أبو اسحق ابراهيم بن علي) تحقيق زكي مبارك دار الجيل - بيروت 1972، ط 4.
- سيكولوجية الفكاهة والضحك زكريا إبراهيمدار مصر للطباعة
- شرح ديوان صريع الغواني تحقيق سامي الدهان دار المعارف بمصر 1985م.
الشعر العباسي/التيار الشعبي سعد اسماعيل شلبي دار مكتبة غريب، القاهرة 1987م.
الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور شوقي ضيف دار المعارف بمصر 1973.
- الضحك هنري برجسون ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم دار اليقظة العربية 1924م.
- طبقات الشعراء ابن المعتز(أبو العباس عبد الله) تحقيق عبد الستار أحمد فراج دار المعارف بمصر 1375هـ، 1975م.
- العصر العباسي الأول شوقي ضيف دار المعارف بمصر 1966م
- عصر المأمون احمد فريد الرفاعي مطبعة دار الكتب المصرية 1346هـ، 1927م.
- العقد الفريد ابن عبدربه(أبو عمر احمد بن محمد) القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1384هـ، 1965م
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ابن رشيق القيرواني(أبو علي الحسن) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة بمصر 1383هـ، 1963م.
- عيون الأخبار ابن قتيبة(أبو محمد عبد الله بن مسلم) المؤسسة المصرية العامة(نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، 1383هـ، 1963م.
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء ابن أبي أصيبعة دار الفكر - بيروت
- فصول في الشعر ونقده شوقي ضيف دار المعارف بمصر، 1971م.
- الفكاهة في الأدب احمد محمد الحوفي دار نهضة مصر 1966م.
- اللزوميات المعري، تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي مكتبة الهلال - بيروت مكتبة الخانجي، القاهرة 1924م.
- مروج الذهب المسعودي(أبو الحسن علي بن الحسين) دار الكتب اللبناني، بيروت 1982م.
- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص العباسي(عبد الرحيم بن أحمد) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد عالم الكتب - بيروت 1367هـ، 1947م
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ابن تغرى بردى(جمال الدين أبو المحاسن) المؤسسة المصرية العامة 1963 - 1972 م.
نهاية الأرب النويري(شهاب الدين أحمد) المؤسسة المصرية المعاصرة 1963م.
- الوزراء والكتاب الجهشياري(ابو عبد الله

محمد بن عبدوس)(تحقيق مصطفى السقا وآخرون) مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة 1357هـ، 1938م.
- وفيات الأعيان ابن خلكان(ابو العباس شمس الدين) تحقيق احسان عباس دار صادر، دار الثقافة، بيروت 1969-1972م.
- يتيمة الدهر الثعالبي(أبو منصور عبد الملك) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد دار الفكر - بيروت 1391هـ، 1973م.

ABSTRACT

This paper deals with the ability of the cynic poet in the Abbasite Age to interact with different factors influenced life course on the one hand and his ability to depict vividly, by allusion and exposition, the different conditions resulted from sociology, politics, economics, and thinking that make this kind of poetry the most effective and powerful to reform, on the other hand.

This paper is based on two interrelated axes:

In the first one, I briefly deal with the mental movements prevailed in the age, the attitude of the cynic poets towards the question of the new and the old, their own hardship as they portray the horrible contradiction of different sides of life, and their serious attempt to replace the images and types of new civilized life by the ideals and literature of the old Arab life.

In the second axis, I present the type of life in the age that is characterized by horrible differences between the ruling influential class and other classes of common people. I have to discuss, as I handle the social life, the economic and political conditions for they are the outcome of the social condition. I also present some types of cynic poetry that influences the cynic poets who have ability to convey the suffering of the nation and its hopes in addition to the decline, deterioration, hopelessness and bewilderment that befall this nation. Finally, I present their desperate attempt to reform and change.